مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد: 07/ العـدد: 02/ ديسمبر (2023)، ص.ص.49-55

التناص القرآني في شعر ابن خميس التلمساني
Quranicintertextuality in thepoetryofIbnKhamis al-Telimsani

لرول عبدالقادر*
mahmoud.fettouh@gmail.com
جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت
محبر الدراسات النقدية والأدبية تيسمسيلت
(الجزائر)

أ.د. فتوح محمود
laroul62@yahoo.com
جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/10/19 تاريخ القبول: 2023/02/27 تاريخ النشر: 2023/12/02

ملخص:
يمثل القرآن الكريم مصدرا ثريا ومنبعا خصبا للأدب العربي قديمه وحديثه، منه نهل الشعراء أفكارا وأساليب واستوحوا معاني ومضامين،فجاء التأثير جليا في نصوصهم تشع مصداقية وتميزا، وذات فنية عالية، تزخر بقيم إنسانية وتتجلى بمثل أخلاقية. وابن خميس التلمساني من الشعراء الذين تأثروا بالقرآن، وهذا ما لاحظناه من دراستنا لموضوع البحث (التناص القرآني في شعر ابن خميس التلمساني)، حيث انصب البحث على ما استلهمه الشاعر من التراث الديني خاصة الآيات القرآنية على مستوى الألفاظ والتراكيب والمعاني وادراجها ضمن نصوصه الشعرية، وبيان مدى إفادة الشاعر من هذه النصوص الدينية في البناء الفني لقصائده وتوظيفها من حيث إنتاج الدلالة وتوضيح الفكرة.
كلمات مفتاحية:التناص القرآني ، شعر ابن خميس التلمساني ، الشعر الجزائري القديم.

Abstract:
The Holy Quranrepresents a rich and fertile source forArabicliterature, ancient and modern, fromwhichpoetshavedrawnideas and methods and beeninspiredwithmeanings and contents. And IbnKhamis al-TelimsaniisoneofthepoetswhowereinfluencedbytheQuran, and thisiswhatwenoticedfromourstudyoftheresearchtopic (theQuranicintertextuality in thepoetryof IbnKhamis al- Telimsani), whereresearchfocused on whatthepoet was inspiredbyreligiousheritage, especiallyQuranicverses at thelevelofwords, structures and meanings and theirinclusion in hispoetictexts, and a statementtheextenttowhichthepoetbenefitedfromthesereligioustexts in theartisticconstructionofhispoems and employingtheir in termsofproducingsignificance andclarifyingtheidea.
Keywords: *Quranicintertextuality, Thepoetryof IbnKhamis al-Telimsani, ancientAlgerianpoetry.*

مقدمة:

يعد كل منجز ثقافي أو عمل أدبي حصيلة المبدع من نتاج السابقين ومعارف الآخرين، أفكار استقاها مما تواتر عليه قراءة وسماعا، وما داوم عليه تدبرا وتتبعا، وما توالى عليه تأثيرا وتأثرا، أكسبه ذلك مهارة الكتابة وفن التأليف. وما الكتابة على حد رأي (رولان بارت) سوى إيقاع القراءة نفسها، فالكتابة الشعرية هي فتح الذات لكل ما يأتي من الآخرين، والنص هو الانتقال من ثقافة الغير إلى متعة الكتابة[1].

وهذا دليل على أن الكاتب لا يبدأ من فراغ، بل بدء من نصوص غيره، ليأخذ ما يتناسب ورؤاه الفنية. هكذا كان دأب الشعراء قديما إذا أرادوا النظم، حثهم الأوائل بحفظ أشعار العرب ومعرفة أبنيتها وتتبع أخبار الشعراء على حد قول (ابن خلدون)، لصقل مواهبهم وتقوية ملكاتهم فاستطاعوا قرض الشعر والنبوغ في صنعته، ألموا بمجاميعه وكان مناط فخرهم وأتقنوا فنونه وكان مثار إعجابهم، وعلى خطى الأقدمين ونهج الشعراء السابقين كان مسار الشعر الجزائري القديم. الذي اتخذ مبدعوه التراث كمرجعية لهم لإثراء تجاربهم وغنى نصوصهم، وأصول يتكئون عليها ويغترفون منها المادة المعرفية لخدمة أغراضهم الشعرية. " ومتى كانت تلك النصوص التي يستقي منها النص الحاضر حية عقيدة وتاريخا وفلسفة، فإن الآثار الإبداعية التي اتكأت عليها ستقترب من دائرة البقاء إنسانيا، ومتى كانت مفتعلة ابتعدت عن دائرة البقاء والخلود وماتت بعد ولادتها مباشرة "[2].

والموضوع المختار (التناص القرآني في شعر ابن خميس التلمساني)، حيث يتناول باختصار ما استقاه الشاعر من نفحات نبع التراث الديني، وخاصة معين القرآن الكريم، متمثلة في ألفاظ ومعاني وتراكيب قرآنية، وتضمنتها قصائده الشعرية خفاء وتجليا خدمة لأغراضه وتزكية لمواضيعه، هذا راجع لتأثره بتراثه الديني والهدي القرآني دلالة على ما أفرزته أعماله من مصطلحات دينية وألفاظ قرآنية.

وهدف البحث بيان مدى إفادة الشاعر من هذه النصوص الدينية في بناء قصائده من حيث إنتاج الدلالة وتعميق الفكرة التي جاءت في سياقها، ضمن منهج وصفي تحليلي. بدأت الدراسة بمفهوم التناص عامة، والتناص القرآني خاصة بمحاوره اللفظي والمعنوي، وانتهت الدراسة بخاتمة تتلخص بأهم نتائج البحث.

مفهوم التناص :

*المؤلف المرسل

التناص هو مصطلح نقدي حداثي غربي التسمية، لكنه مفهوم عربي قديم المنشأ وإن لم يهتد آنذاك إلى تسميته الحالية، ظاهرة نقدية قديمة تتكرر في كل أوان وحين عبر عنها الرعيل الأول بمسميات عديدة منها الاقتباس والتضمين والسرقات الأدبية... وغيرها، ولم يهتدوا إلى المصطلح إلا حديثا، الذي يعزى السبق في التنظير له إلى البلغارية جوليا كريستيفا (J.Kristeva)، التي عرفت المصطلح وحددت ملامحه الإجرائية وهي أول من استخدمه بعد ظهوره للمرة الأولى في أبحاث نشرت لها ما بين 1966-1967، في مجلتي تيل كيل (Tel quel) وكريتيك (Critique) ، وأعيد نشرهما في كتابي سيميوتيك ونص الرواية[3]. مستلهمة الفكرة من أستاذها باختين(Bakhtine)، من مفهومي تعددية الأصوات والحوارية، ويرى بعض الباحثين أن معظم الدراسات التناصية تعزى إلى الإرث الباختيني التي شكلت مصدرا مهما من المصادر التي صاغت بها جوليا كريستيفا نظريتها[4].

كانت أفكار باختين حاسمة في ميلاد مفهوم التناص دون أن يكون باختين هو الذي وضع المصطلح ذاته، ومع ذلك ظل هذا المصطلح يشرح دائما بالاعتماد على كتبه و مصطلحاته المبثوثة فيها[5].

لقد أثار المصطلح رواجا مع الدراسات النقدية. وعلى نفس مسار الباحثة جوليا كريستيفا استمر نظراؤها بالتنظير والممارسة التطبيقية للتناص مع النقاد الغربيين أمثال: أريفي (Arrive) وريفاتير (Riffaterre) وصولا إلى تودوروف (Todorov) وجيرار جينيت(G.Genette)اللذان وضعا اللمسات الأخيرة لهذه النظرية[6].

وعرفت كريستيفاالتناص: "النص إنتاجية وترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة، مقتطعة من نصوص أخرى"[7].

ويعرفه سولرس: " كل نص يقع في ملتقى مجموعة من النصوص بحيث يكون هو الجامع بينها والمشكل لها ومكثفها ومحولها وعمقها على السواء"[8] .

وملخص القول أن التناص: " يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتندغم فيه ليتشكل نص جديد واحد ومتكامل"[9].

التناص الديني :

لقد كان التراث الديني باختلاف مصادره رافدا مهما ومنبعا ثريا للأدب الجزائري شعرا ونثرا وفي كل العصور، وكان ميل الشعراء تجاهه وحرصهم على توظيف نصوصه تبعا لخاصيته الجوهرية، مما يستدعي حفظه والمداومة عليه، لأن ذاكرة الإنسان تكاد لا تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينيا أو شعريا[10]. منه استقى الشعراء زادهم وزاد رصيد ثقافتهم، وعزز جل إبداعاتهم، وعلى هذا النحو كان مسار الشعر الجزائري القديم سالكا نهج تراث الأقدمين، وخطا منجزات الأولين، فسما شعرهم وذاع صيتهم، ليبقى التراث رافدا أساسيا ومنبعا مهما للإلهام الشعري لدى شاعرنا ابن خميس مستلهما إياه محورا وموظفا وفق رؤاه إلى الحياة والوجود، والدليل ما نلحظهمن المنجز الشعري لابن خميس وإن بدا جديدا إلا ويحمل بعض سمات تراثه مستمدا منه نماذج وموضوعات ما يعزز شاعريته ويثري عمله فنا وإبداعا، كما سيتبين لاحقا.

التناص مع القرآن الكريم:

انفتح الشعر الجزائري القديم على النصوص القرآنية، فاستطاع الشعراء أن ينهلوا من القرآن الكريم لغة وأسلوبا تبعا لما يتميز به القرآن الكريم ببلاغته العالية، وبنظمه البديع المعجز، وبلغته الدقيقة المعبرة التي أثرت اللغة العربية وأثرت في أجناسها الأدبية شعرا ونثرا. ولأن هذا الكتاب المقدس قد أعتلى قمة الفصاحة والبيان، وآثار نصوصه عند توظيفها في تضاعيف النص الأدبي تظهر جليا، تضفي عليه مزيدا من الإقناع والتأثير[11]. وللقرآن الكريم حضور ملحوظ في جل أجناس الأدب العربي شعرا ونثرا. "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث البهاء والوقار والرقة، وسلس الموقع"[12].

كما أن حضور آثار القرآن الكريم في بنية النص الشعري مما يفتح له آفاقا من التعبير والتأثير، ذلك أن التناص القرآني يجعل الشاعر يميل بلغته الشعرية صوب آفاق التحليق بواسطة الإشارة والتحليق ... فالإشارة القرآنية تغني النص الشعري وتكسبه كثافته التعبيرية[13].

الحياة الفكرية والعلمية في عصر ابن خميس :

نتطرق إلى فحوى دراستنا بلمحة مقتضبة عن الحياة الثقافية والفكرية في دولة بني زيان ومدى تأثيرها على الشاعر ابن خميس، لقد كانت حاضرة تلمسان في عصر بني زيان تعج بالعلم والعلماء لكونه عهد حافل بالأمجاد في شتى المجالات الفكرية، لقد شملت الحركة العلمية العلوم العقلية والعلوم الدينية والعلوم العربية...، وهذا راجع إلى المكانة الرائدة التي تتمتع بها مدينة تلمسان بفضل النزعة العلمية والثقافية التي يتميز بها بعض سلاطين وأمراء بني زيان، فقد كان لهم اهتمام بالجانب العلمي، لأن من بينهم من كان ينتمي إليه (المجال العلمي)، فنبغ الشاعر والأديب والفقيه...، لذا كانوا يشجعون العلماء والفقهاء والأدباء، ويستقبلونهم من مختلف الأقطار الإسلامية، وإنشاء دور العلم والمعاهد إلى جانب المساجد بغية التحصيل العلمي في عدة مجالات، مما أسهم كثيرا في تطوير الحياة الفكرية والنهضة العلمية التي زخرت بها حاضرة تلمسان حتى صارت من المراكز التي تستقطب الطلاب وأهل العلم من المشرق والمغرب، فأقبلوا ينهلون من ينابيعها الثقافية ويستفيدون من علمائها المقيمين والزائرين[14].

نشأ شاعرنا في حاضرة تلمسان، طبيعة صقلت مواهبه، بيئة غذت شاعريته، نهل من ينبوعها العلم والدين، ودرس على شيوخها وعلمائها، أبدع في الأدب وتفوق في الشعر، تعلم وحفظ القرآن في الكتاتيبعلى الطريقة المتبعة آنذاك في تلمسان، وعبر ربوع مناطق المغرب الأوسط عموما (الجزائر) في قراءة القرآن وحفظه بالألواح في الكتاتيب، وهذا ما يظهر في شعره للمراحل الأولى من تعلمه حسب ما تبينه أبيات قصيدته في رثائه لبلدته تلمسان، منها أبيات :

وعهدي بها والعمر في عنفوانـه وماء شبـابي لا أجيــن ولامطــخ
معاهـد أنس عطلـت فكأنـها ظواهـر ألفـــاظ تعمـدها النسـخ
وأربع آلاف عفـا بعض آيـــها كما كان يعرو بعض ألواحـنا اللطخ[15]

التناص في شعر ابن خميس مع القرآني الكريم:

كان لتوظيف الشاعر للمفردة القرآنية والمعنى والتركيب في شعره أثر بالغ وصدى عميق في نفس متلقيه. إن تفاعل الشاعر ابن خميس مع القرآن لعل نصوصه الشعرية ذات سلطة تأثيرية بدلالات لامتناهية، وتفسر كثير من الأشياء لتنساب أفكار شاعرنا وتتوالى معانيه بسلاسة بعيدة عن التكلف والحشو، وهذا لحسن اختيار معانيه وألفاظه وصياغتها اللائقة في متن شعره.

التناص مع المفردة القرآنية:

نتيجة لتأثر الشاعر بالقرآن الكريم وتبعا للبيئة المتدينة بالعقيدة الإسلامية، تتوارد أفكاره وأساليبه عبر مخزون ذاكرته ليعيدها في شعره بقصد منه أو بدون قصد موظفا إياها في نصوصه. لقد وظف الشاعر في كثير من أبيات قصائده مفردات قرآنية لما تحوز عليه إمكانياته المعرفية بلغة القرآن الكريم، وأفاد منها وأدخلها إلى نصوصه واستثمرها استثمارا فنيا لتزخر أبياته بطاقة تعبيرية ودلالات إيحائية تتلاءم مع السياق والموقف وتنسجم وموضوعه الشعري. نورد بعض الأبيات من قصائده الشعرية للدلالة على ما ذكر من ألفاظ على سبيل المثال،ورد في البيتين التاليين :

وأنا الفقيـــر إلى تعلـة ساعـــة منها وتمنعني زكاة جمالـــها

وابن السبيل يجيءيقتبس نارها ليلا فتمنعـــه عقيلة مالـــها[16]

استحضر الشاعر لفظة "ابن السبيل"، (التي تعني المسافر أو عابر السبيل، الذي انقطعت به السبل، آت من بلد بعيد...)وقد استقاها من القرآن الكريم، من الآية :﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[17] والآية: ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا** ﴾[18]بالإضافة إلى التركيب القرآني الذي تضمنه البيت الثاني والمتمثل في: "يقتبس نارها" ما سنتناوله لاحقا في محور "التراكيب القرآنية"، وقد جاء تناص الشاعر مع السياق القرآني موافقا من حيث الدلالة، إن "ابن السبيل " مصطلح قرآني جاء في كتاب الله تعالى مرتبطا بالزكاة وتحديد الأصناف الذين تمنح لهم الزكاة بالترتيب منهم "ابن السبيل" أي المسافر الذي انقطع به السبيل فلم يعد له ما يكفيه في سفره وما يعينه في نفقته، حيث تحل له الزكاة في الإسلام. أما في الآية الثانية يأمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان والمعونة إلى ابن السبيل وغيره ممن يستحقون ذلك، بما يعينهم ويسد حاجتهم، ونهى عن إسراف المال في غير طاعة الله.

ويقول ابن خميس في البيت التالي:

أظهرت دين الله في زمـن مازال يغلب حقه البهت[19]

لقد استحضر الشاعر لفظ "دين الله" من الآية الكريمة: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾[20].

فالدين الذي ارتضاه الله لعباده هو الإسلام. كما جاء في سورة آل عمران الآية (85) :﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ...**﴾ .

وظف الشاعر لفظ " دين الله" خدمة لغرضه الشعري، حيث يصف ممدوحه(ابن الحكيم) بأن أظهر شجاعة ودافع عن دين الله وهدد أعداء الإسلام نصرة للحق ونشر الأمن والطمأنينة في أرض المسلمين بعدما كان يتكالب عليهم المسيحيون الأسبان بشن غاراتهم في كل مرة، وبعمله هذا أصبح المسلمون آمنين من أي مكروه يعكر صفو حياتهم ويهدد أمنهم.ويمدح في مواضع عديدة من قصائده ابن الحكيم لمكانته وسمو شأنه وإكرامه العلم والعلماء على حد قول ابن الخطيب[21]، حسب ما ورد في مؤلف (الطاهر توات).

و يقول الشاعر في البيتين التاليين :

خدعت بهذا العيش قبل بلائـه كما يخدع الصادي بلمع سراب

تقول هو الشهد المشور جهـــالة وما هو إلا السـم شيب بصاب[22]

ظهر التناص اللفظي في كلمة "سراب" التي استقاها من الآية الكريمة:﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾[23].

أي أعمال الكفار بمنزلة سراب بقيعة (أي لا شجر فيها ولا نبات)، يظنها الجاهل أعمالا نافعة حتى إذا قدم عليها يوم الجزاء وجدها ضائعة ولم يجدها شيئا، مثل العطشان يتوهم الماء من شدة عطشه، فيقصده ملتمسا ماء فلم يجده شيئا[24]. وكان استخدامها في بيته الشعري موافقا دلالتها بما ورد في الآية، راح الشاعر يشبه نفسه في هذه الدنيا بالظمآن الذي خدع ببريق السراب ولمعانه، لأنه خدع بهذا العيش الذي كان يظهر له كشهد النحل المملوء بالعسل ولكن الحقيقة عكس ذلك وإنما هو السم وشجر شديد المرارة كالعلقم.

ويقول الشاعر:

وإخوان صدق من لداتي كأنهم جآذر رمل لا عجاف ولا بزخ[25]

أفاد الشاعر من اللفظ القرآني"عجاف" باستحضار الصورة القرآنية الماثلة في أذهان المسلمين والمتمثلة في قصة يوسف عليه السلام الذي خصه الله تعالى بتأويل الأحاديث وتفسير الرؤى، وكانت الآية:﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾[26].

وتأويل سيدنا يوسف عليه السلام لما رآه ملك مصر في منامه، سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف أي هزيلات ...، أما في النص الشعري كانت صياغتها بالنفي "لا عجاف" ، حيث أن البيت عامة مفاده، إن الشوق الذي يكنه الشاعر يتأجج داخله والحب لبلده تلمسان أديا به إلى تذكر أقرانه وأترابه ووصف بعض خصالهم ومميزاتهم، فهم إخوان صدق، و كأنهم جآذر رمل في جمالها وهيئتها، أي لا هزال ولا بزخ هم، بل اعتدال وجمال .

ويقول الشاعر ابن خميس:

أعـاد شبابي مشيبا، كما سمعت وصير نسكي طلاحا[27]

هذا البيت الشعري من قصيدة يمدح الشاعر فيها صديقه ابن الرشيد، من الذين يثق فيهم ويأتمن إليهم ويحكي له همومه وما تعرض له من مؤامرة من أعدائه، كما يعرض له الأسباب التي جعلته يفر من تلمسان على ما لقي من الدسائس من طرف خصومه الذين أرادوا الإيقاع به وحولوا حياته كربا، فلم يعرف للحياة استقرارا وللراحة طعما في بلدته، مكان أنسه وملاذ عيشه، فالأحداث التي واجهها والصعوبات التي كابدها، عكرت صفو حياته، جعلته يشيب وهو في ريعان شبابه وغيرت زهده فسادا. لقد تناص الشاعر في (أعاد شبابي مشيبا) مع القرآن الكريم، في الآية: ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ**

إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[28]. أي كيف تقون أنفسكم ويحصل لكم النجاة من عذاب يوم القيامة، إن كفرتم، يوم يشيب فيه الولدان الصغار، من شدة هول هذا اليوم وكربه[29].

ويقول الشاعر:

يتضاءل الصبـــح المنيـــر إذا لاقى سناه جبينك الصلت
حتى كأن شمس الضحى قمـــر وكأن ضوء شعاعــها فخت[30]

يلتجئ الشاعر إلى مصدره الأول التراث الديني مستخلصا منه صورة المعبرة من مصطلحات دينية وألفاظ قرآنية لاستخلاص صوره المعبرة عما يجول في خاطره، ففي مدحه لصديقة ابن الحكيم ذى الوزارتين، أتى بصورة الصبح المنير وبصورة الشمس والقمر وضوئهما فجاء بشمس الضحى (ضحوة الشمس) وكان استوحى ذلك من الآية:﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾**[31] . كما وردت في نصوصه الشعرية كثير من الألفاظ والكلماتالدينية: الحج، مكة، الملائكة، الصيام، نسك، الكفر، هدى، شرك، الصلاة، الزكاة ...

التناص مع التراكيب القرآنية :

وظف الشاعر في كثير من قصائده التراكيب القرآنية مما جعله يضفي على شعره قوة وجزالة، فالخطاب القرآني لا يضاهيه خطاب فهو نبع ثري فياض لا ينفذ وقوة مؤثرة ينجذب إليها القارئ والمتلقي، يقول ابن خميس في البيت الشعري من قصيدة الخائية:

وعاة لما يلقى إليهم من الهدى وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ[32]

يصف أبناء بلده بالصفات الحميدة من أخلاق ومروءة وامتناعهم وابتعادهم عن كل فحشاء ومنكر.

وجاء التناص مشابها لما ورد في القرآن تركيبا ومضمونا، بتحوير طفيف لكلمة منكر لورودها مؤنثة، الآية: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾**[33]. إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بالصالحات من الأعمال بما فيه النفع لهم ومرضاة لله وينهى عن ارتكاب المحرمات وفعل الآثام من الفواحش والمنكرات والبغي لعلنا نتعظ ونتذكر.

وفي كثير من الآيات التي ينهى فيها عن الفحشاء والمنكر.

ويقول الشاعرابن خميس:

وابن السبيل يجيء يقتبس نارها ليلا فتمنعه عقيلة مالها.

وظف ابن خميس تركيبا قرآنيا "يقتبس نارها" في نصه الشعري بفضل قبس من نار يضيء طريقه ليهتدي به المرء وعابر السبيل ليلا أو يجد ضالته، وهذا تناص موافق الدلالة مع القرآن الكريم، تركيب استقاه ليضمنه شعره، فجاء هذا الأخير متماهيا مع النسيج القرآني في قوله تعالى: **﴿ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾**[34].

رأيسيدنا موسى عليه السلام في الليل نارا فقال لأهله انتظروا لعلي أجيئكم بشعلة، تضيء دربنا حتى لا نضل طريقنا، أو أجد عند النار من يعرف الطريق يدلنا عليها.

ويقول :**وطأت لي الدنيا فلا عوج فيما أرى منها ولا أمت**[35]

يقول ابن خميس مادحا صديقه ابن الحكيم، ذاكرا كرم وعناية ممدوحه التي غمره بها، وما أغدق عليه من معروف و نعم، مما جعله يطيب مقاما ويستقر اطمئنانا مدة إقامته، كأنما خضعت له الدنيا فلم يعد يرى ما يعكر صفو حياته مقتا وعسرا، وقد جاء تناصه موافقا دلالة الآية: **﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾**[36]، أي: ترى الأرض يومئذ سوية لا واديا ولا هضبة، ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا، ولا ترى فيها اعوجاجا.

ويقول ابن خميس التلمساني :

تلمسان جادتك السحاب الدوالح وأرست بواديك الرياح اللواقح[37]

جاء ذكر السحاب الكثيف في معنى الدعاء لمدينته بأن ترويها السحب الثقال المحملة بالأمطار الغزيرة والرياح المحملة بحبوب الطلع بها تلقح النباتات والأشجار، حيث تم استحضار التركيب "الرياح اللواقح" من القرآن الكريم، وتضمنه شعره، والآية :

﴿ وَأَرْسَلْنَاالرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[38]

ويقول الشاعر أيضا في الأبيات التالية:

دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي يذل له رضوى ويعنــو له دمـخ
فلم يستجيبوه فذاقـوا وبالـهم وما لامرئ عن أمر خالقـه نـخ
وما زلت أدعو للخـروج عليهم وقد يسمع الصم الدعاء إذا أصخوا[39]

يقول ابن خميس أن أبا يعقوب (المريني) دعاهم إلى الشرف وما يضمن صلاحهم (بني زيان)، لكن أبوا وازدادوا عنادا ولم يستجيبوا له ، فكان لهم الأسوأ بحصارهم، ولقوا ويلات تجبرهم، وعاقبة عدم استجابتهم له" فذاقوا وبالهم" ، وهذا يحيلنا إلى تناص مع الآية الكريمة :**﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾**[40].

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم هذا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم[41].

كما يقول الشاعر في البيت الثالث: أني مازلت أدعو الناس إلى عصيانهم والخروج عليهم أي يحرضهم ضد ملوك بني زيان، لكنهم متشبثين بعنادهم مما جعل الشاعر ييأس من رجوعهم إلى طريق الصواب. وهنا نلحظ تناصه مع النص القرآني " تسمع الصم الدعاء" حاكى التركيب القرآني، حيث يقول الله عز وجل: **﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾**[42].

لا تقدر أن تسمع الموتى ولا تسمع من أصم الله سمعه عن سماع الحق عند إدبارهم معرضين عنك.

التناص مع المعنى القرآني:

لا يقتصر التناص عند الشاعر ابن خميس التلمساني مع المفردة والتركيب القرآني بل يتعدى إلى المعنى القرآني أي توظيف فكرة محورا إياها من خلال الانزياح من لفظة أو لفظتين من طرف الشاعر لإنجازبراعة أسلوب معنوي جديد.

ففي مقطع من شعره يقول :

لقيت من عامرهم سيدا غمر رداء الحمد جم النوال
وكعبة للجود منصوبة يسعى إليها الناس من كل بال[43].

يمدح الشاعر ابن خميس التلمساني بعض ملوك بني زيان ويذكر خاصة أبا زيان عامر بن أبي سعيد الذي أحاطه برعايته وغمره بكرمه وعطائه، يصفه لكثرة سخائه كعبة منصوبة للجود والكرم، حيث يسعى إليها الناس من كل فج، صورة استمدها من الحرم الشريف والمسلمين المتوجهين إليه من مشارق الأرض ومغاربها، وكان هذا التناص المعنوي استوحاه من الآية:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[44]. صورة وضحت كرم ممدوحه وجزيل عطائه الملك الزياني (أبي زيان عامر بن أبي سعيد).

ويقول الشاعر ابن خميس :

وهادن طغاة الكفر ما هدأت حتى يجيء نهارها المحت
دعها تودع في معاقلها ما لم تعد جفاتها العنت[45]

راح الشاعر يوجه نصائحه إلى ممدوحه (ابن الحكيم) بأن يهادن طغاة الكفر، ويمهلهم إلى اليوم الموعود المناسب حتى يكونوا مستعدين لهم أتم الاستعداد ويستطيعون التغلب عليهم حتى لا يعودوا إلى غطرستهم وفجورهم. نستشف من نصه الشعرى تناصا يحيلنا إلى النص القرآني:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ۚ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[46].

ويقول ابن خميس :

دعيتم إلى ما يرجى من صلاحكم فردكم عنه التعجرف والجمخ
فكم فئة منا ظفرتم وأمامها أسود غياض وهي ما بينكم أرخ[47]

الشاعر ابن خميس يهجو بني عبد الواد لأنهم في نظره هم السبب الرئيسي في حصار تلمسان، ولأنهم متعجرفون مستبدون وبهذا التصرف أذاقوا الناس العذاب الأليم. يقول: فكم من فئة منا كانت الغلبة والنصر المظفر، وهذا التناص المعنوي يحيلنا إلى الآية الكريمة:**﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾**[48].

الخاتمة :

تبعا لما مضى يتبين أن الشاعر ابن خميس التلمساني استثمر كثيرا من تراثه الديني خاصة ما استوحاه من القرآن الكريم موظفا إياه تضمينا واستشهادا في نصوصه الشعرية، وهذا دلالة لتأثره به على غرار أبناء بلده (حاضرة تلمسان)، دينهم الإسلام ومنهجهم القرآن. وما تحوز عليه حاضرة تلمسان من معاهد فقه ومساجد يؤدون فيها فرائضهم الإسلامية ويتعلمون شرائع دينهم الحنيف، ومن نتائج البحث المستخلصة ما يلي:

- تلاقح ثقافة الشاعر المكتسبة والمستقاة من مصادر مختلفة مع موهبته جعلت منه شاعر المائة السابعة كما وصفه شعراء وأدباء عصره.
- كثرة المصادر التي نهل منها، تنوع الثقافات باختلاف الحضارات جعلته يبرز في العديد من المجالات منها الأدب والشعر والفقه حتى أطلق كنية "العالم ابن خميس".
- نتيجة تأثر الشاعر بالموروث الديني خاصة القرآن الكريم مما انعكس على قصائده التي تزخر ألفاظا وتراكيب ومعاني قرآنية واكسبها صبغة دينية تشع من هدي القرآن إشراقا.
- لم يكتف باستحضار ألفاظ ومضامين قرآنية وإدراجها في نصوصه اعتباطيا بل أضاف إليها إبداعا فنيا بفضل تحويراته وإضافاته مما يضفي عليها روح خميسية وصبغته الزيانية.
- إن إجادة الشاعر في السبك والانسجام النصي مما يبقي بريق نصه ماثلا جليا دلالة على شاعر متمكن يحسن اختيار مفرداته وجمله والزج بها في متنه الشعري.

– الهوامش:

1- رولان بارت، لذة النص، تر: فؤاد صفا والحسين سحبان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2001م، ص 7- 10 .
2- حصة عبد الله سعيد البادي، التناص في الشعر العربي الحديث- البرغوثي نموذجا، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2009، ص36.
3- فاروق أحمد الهزايمة، التناص بين النظرية والتطبيق،حولية جامعة الأزهر، العدد 19، 2015، ص 1248-1249.
4- عزوز قربوع، نظرية التناص، مجلة الآدب واللغات، العدد 2، جامعة سكيكدة، 2015، ص 107-108.
5- حميد لحمداني، التناص وإنتاجية المعاني، علامات في النقد، العدد 40، 1م 10، يونيو 2001، ص 68.
6- نظرية التناص، المرجع السابق، ص 111.
7- جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1991، ص 322 .
8- التناص وإنتاجية المعاني، المرجع نفسه، ص 67.
9-احمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، ط2، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000، ص11 .
10-صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص 59.
11- علي يحي نصر عبد الرحيم، نظرية التناص وخصوصية النص القرآني، مجلة العلوم العربية، العدد 27، ربيع الثاني 1435، ص 218.
12- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول، ط7، مكتبة الخانجي الطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 18.
13- نظرية التناص وخصوصية النص القرآني، المرجع السابق، ص 219-220.
14- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، الجزء 2، موقع للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2002، ص 319-320.
15- طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، ط 1، الملكية للطباعة والنشر، 2007، الجزائر ص 62.
16- ابن خميس التلمساني حياته وشعره، المرجع السابق، ص 159.
17- الآية 215 من سورة البقرة.
18- الآية 26 من سورة الإسراء.
19- ابن خميس حياته وشعره، المرجع نفسه، ص 178.
20- الآية 19 من سورة آل عمران.
21- ابن خميس حياته وشعره، المرجع السابق، ص 175
22- ابن خميس حياته وشعره، المرجع نفسه، ص 252.
23- الآية 39 من سورة النور.
24- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2003، ص 541.
25- ابن خميس حياته وشعره، المرجع السابق، ص 207.
26- الآية 43 من سورة يوسف.
27- ابن خميس حياته وشعره، ص 133.
28- الآية 17 من سورة المزمل.
29- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص 854.
30- ابن خميس حياته وشعره، ص 227.
31- الآية 1 من سورة الشمس.
32- ابن خميس حياته وشعره، المرجع السابق، ص 207. صلخ: صلخ صلخا فهو أصلخ: الأصم.
33- الآية 90 من سورة النحل.
34- الآية 10 من سورة طه.
35- ابن خميس حياته وشعره، المرجع نفسه، ص 87.
36- الآية 107 من سورة طه.
37- ابن خميس حياته وشعره، ص246.
38- الآية 22 من سورة الحجر.
39- ابن خميس حياته وشعره، ص 76.دمخ: رضوى ودمخ: جبلان بشبه الجزيرة العربية. النخ: السير ويريد به الشاعر الهروب.
40- الآية 15 من سورة الحشر.
41- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص 815.
42- الآية 80 من سورة النمل.
43- ابن خميس حياته وشعره، المرجع السابق، ص 176.
44- الآية 27 من سورة الحج.
45- ابن خميس حياته وشعره، المرجع نفسه، ص 186-187.
46- الآية 60 من سورة الأنفال.
47- ابن خميس حياته وشعره، المرجع السابق، ص 209. الجمخ: التعحرفوالجمخ: التكبر.
48- الآية 249 من سورة البقرة.

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم .

1. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ط7، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998
2. أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، ط2، مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2000.
3. جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، المغرب، 1991.
4. حميد لحمداني، التناص وانتاجية المعاني، علامات في النقد، العدد 40، يونيو 2001.
5. حصة عبد الله البادي، التناص في الشعر العربي الحديث، البرغوثي نموذجا، دار الكنوز للمعرفة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2003 .
6. رولان بارت، لذة النص، تر: فؤاد صفا والحسين سحبان، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2001.
7. صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987.
8. طاهر توات، ابن خميس التلمساني حياته وشعره، الطبعة الأولى، الملكية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
9. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، الجزء 2، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002
10. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2003

11. علي يحي نصر عبد الرحيم، نظرية التقاص وخصوصية النص القرآني، مجلة العلوم العربية، العدد 27، ربيع الثاني 1435 .
12. فاروق أحمد تركي الهزايمة، التناص بين النظرية والتطبيق، حولية جامعة الأزهر، العدد 19، - 2015. عزوز قربوع، نظرية التناص، مجلة الآداب واللغات، العدد 2، جامعة سكيكدة، الجزائر، 2015